شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١٠)

ثم إنَّ المصنف رحمه الله عاد إلى ذكر آي الكتاب فقال: [قال الله تبارك وتعالى: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ))[الكهف:١]، وقوله: ((نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ))[آل عمران:٣-٤]، وقوله: ((حم * تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ))[فصلت:١-٢]، ((تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ))[فصلت:٤٢]، ((إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ))[القدر:١]، ((إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ))[الدخان:٣]، ((سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ))[النور:١]، وما أشبه هذا في كتاب الله كثير، كلُّ ذلك دليل على أنَّ الله عز وجل أنزله من السماء من عنده، ولو كان على ما يدعي هؤلاء الزائغة أنَّه تحت الأرض وفوقها كما هو على العرش فوق السماء السابعة لقال جل ذكره في بعض الآيات: إنَّا أطلعناه إليك، ورفعناه إليك، وما أشبهه].

الآيات الدالة على إثبات تنزيل القرآن كثيرة جداً، ذكر جملة منها، وكلها دالة على علو الله عز وجل، فقد توافرت وتكاثرت وحافظت على لفظ واحد وهو لفظ النزول، ولم يأت ولا في مرة واحدة ما يدلُّ على ما مثَّل به المؤلف: (إنا أطلعناه أو رفعناه)، مما يكون يدلُّ على أنَّه مجيئه من يمين أو شمال أو أمام أو خلف أو تحت، بل كلها متطابقة بلفظ واحد على لفظ النزول التنزيل، وهذا يدلُّ على علو الله سبحانه وتعالى. هذا ما يتعلق بالقرآن، ثم بعد ذلك ذكر سوى القرآن فقال:

[وقال: ((وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ))[مريم:٦٤]، و ((نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ))[الشعراء:١٩٣]، و ((قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ))[النحل:١٠٢]. ولم يقل: ما يخرج من تحت الأرض، وما يصعد منها.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ - حفظه الله -

قال أبو سعيد رحمه الله: فظاهر القرآن وباطنه يدلُّ على ما وصفنا من ذلك، نستغني فيه بالتنزيل عن التفسير، ويعرفه العامة والخاصة، فليس منه لمتأول تأول، إلا لمكذب به في نفسه، مستتر بالتأويل].

إذاً هذه الآيات التي ذكرها أخيراً تدلُّ على تنزل الملائكة من عند ربها، إما عموم الملائكة، وإما الروح الأمين روح القدس جبريل عليه السلام، فهذا أيضاً يدلُّ على علو الله عز وجل، لأنَّ الملائكة عند ربها تتنزل بأمره، فدلَّ ظاهر القرآن وباطنه على تقرير صفة العلو بحمد لله.

وهاهنا تنبيه قال: (نستغني فيه بالتنزيل عن التفسير)، اعلم أنَّ السلف أحياناً يعبِّرون عن التحريف الباطل بالتفسير، ولهذا إذا رأيت في بعض كلام السلف نفي التفسير، فإنَّما يريدون به التفسيرات الباطلة التي ادعاها الجهمية، كتفسيرهم الاستواء بالاستيلاء، واليد بالنعمة أو القدرة، فما وجدت من ذكر نفي التفسير فالمراد به التفسير الباطل، وبهذا يسقط قول المفوضة الذين يزعمون أنَّ الواجب علينا هو إثبات ألفاظ الصفات دون العلم بمعناها، وربما استدلوا ببعض المأثور عن السلف، فحينما يقولون مثلاً: لا كيف ولا تفسير، لا نفسِّر هذا، يُحفظ عن السلف أنَّهم يقولون: لا نفسِّر هذا، دون تفسير، وينكرون على من قال: ما تفسيرها؟ إنَّما أرادوا النكير على من سار على طريقة بشر المريسي، والجهم بن صفوان، ومن شابههم، ممن فسروها تفسيراً مجازياً، هذا هو التفسير المذموم، أما إثبات معناها فهذا قرين لفظها، إذ أنَّ الألفاظ أوعية للمعاني، فلهذا تجد أنَّهم يقولون: قراءتها تفسيرها، يعني: أنَّ المعنى والتفسير الصحيح هو ما دلَّ عليه اللفظ الذي وُضع في أصل لغة العرب، لا الألفاظ المدعاة المزعومة التي تنقلها من أصل الوضع إلى معنى مجازي، فلينتبه لهذا فإنَّه من الأمور التي يشبِّه به المفوضة أهل التجهيل على الناس.

ثم إنَّه قال: [ويلكم إجماع من الصحابة والتابعين وجميع الأمة، من تفسير القرآن والفرائض والحدود والأحكام: نزلت آية كذا في كذا، ونزلت آية كذا في كذا، ونزلت سورة كذا في مكان كذا. لا نسمع أحداً يقول: طلعت من تحت الأرض، ولا جاءت من أمام، ولا من خلف، ولكن كله: نزلت من فوق.

وما يصنع بالتنزيل من هو بنفسه في كلِّ مكان. إنَّما يكون شبه مناولة، لا تنزيلاً من فوق السماء مع جبريل، إذ يقول سبحانه وتعالى: ((قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ))[النحل:١٠٢]، والرب بزعمكم

الكاذب في البيت معه، وجبريل يأتيه من خارج. هذا واضح، ولكنكم تغالطون، فمن لم يقصد بإيمانه وعبادته إلى الله الذي استوى على العرش فوق سمواته، وبان من خلقه، فإنَّما يعبد غير الله، ولا يدري أين الله].

كلُّ هذا من اللوازم التي تلزمهم، وتدلُّ على عدم انتفاعهم بالقرآن العظيم، ورغبتهم عنه، فهم يعتقدون ثم يستدلون، والموفَّق هو الذي يستدلُّ ثم يعتقد، لا يكون الدليل دليلاً إلا إذا دلَّ صاحبه، أما أن يعتقد بمقدمات باطلة ومعلومات سابقة ثم يواجه نصوص الكتاب فيلوي أعناقها حتى تستقيم مع مقرراته، فهذا لم ينتفع بالكتاب، وإنَّما شقي بالكتاب.

ثم قال: [حدَّثنا مهدي بن جعفر الرملي، (قال): حدَّثنا جعفر بن عبد الله، وكان من أهل الحديث ثقةً، عن رجل قد سماه لي، قال: جاء رجل إلى مالك بن أنس فقال: يا أبا عبد الله ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى))[طه:٥]، كيف استوى؟ قال: فما رأينا مالكاً وجد من شيء كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء، وأطرق، وجعلنا ننتظر ما يأمر به فيه. قال: ثم سري عن مالك، فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني لأخاف أن تكون ضالاً. ثم أمر به فأُخرج].

هذه القصة قصة صحيحة ثابتة عن مالك بن أنس، رواها جمع من المحدثين، وهي في الواقع دستور لأهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات، فإنَّ الداخل عليه وجَّه إليه سؤالاً فجًّا، (فقال له: يا أبا عبد الله، ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى))[طه:٥])، تأملوا يا إخوة هاهو الرجل قد علم أنَّ الله قد ذكر الاستواء في القرآن، لكن ماذا كان سؤاله؟ (كيف استوى؟) يقول الراوي: (فما رأينا مالكاً وجد من شيء كوجده من مقالته)، أراد (ما وجد شيء)، يعني: ما انفعل وتأثر كتأثره وانفعاله من مقالة ذلك الرجل، وذكر دليلاً على ذلك قال: (وعلاه الرحضاء)، وهو العرق الذي يتصبب من الإنسان ينفض بدنه عرقاً لهول وقع السؤال عليه رحمه الله، إذ كان القوم يعظمون الله تعالى، (وأطرق)، والإطراق هذا أراد به أن يحير جواباً، ويسوغ جواباً مناسباً، (وجعلنا ننتظر ما يأمر به فيه، توجس القوم حتى كأنَّما على رؤوسهم الطير ماذا سيصنع مالك؟ وكان مالك رحمه الله إذا جلس في مجلس الحديث كالملك مهابةً وجلالاً وفضلاً رحمه الله، يلبس

أحسن ثيابه، ويتطيب، لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان له مهابة. قال: (ثم سري عن مالك)، وهو أمر يجده كل واحد منَّا أحياناً يعتريه شيء من الانفعال وتوالي دقات القلب والتعرق لحدث ما، ثم بعد ذلك يعود إلى حاله السواء، قال: (ثم سري عن مالك فقال) هذه الجمل (الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول)، وهذه الرواية قد تكون أدل وأحسن من الرواية المشهورة، وكلتاهما رواهما اللالكائي، إذ أنَّ في بعض السياقات "الاستواء معلوم، والكيف مجهول"، ولكن هذه أدل وأفيد، قال: (الكيف غير معقول)، أفادتنا أنَّ ثم كيف، هناك كيف قطعاً، لكن هذا الكيف غير متعقَّل بالنسبة لنا، لا يمكن لنا أن نتعقَّل كيفية استواء الله على عرشه، فأفادت جملة الكيف غير معقول وجود كيفية، هي أدل على ذلك من "الكيف مجهول"، والجملة التي بعدها: (والاستواء منه غير مجهول)، يعني: أنَّ الاستواء معلوم المعنى، ثابت له سبحانه وتعالى، فالعرب تعرف من لغتها أنَّ استوى بمعنى: علا، فالذي قال: ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى))[طه:٥] هو الذي قال عن الفلك والأنعام: ((لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ))[الزخرف:١٣]، فكيف يكون معناها في آية الزخرف معلوماً، ويكون معناها في سبعة مواضع في القرآن مجهولاً؟ والله قد أنزل القرآن بلسان عربي مبين، ودعا إلى تدبره وتعقله وتفهمه كله دون استثناء، هذا لا يفرِّق بينه إلا من كان في قلبه هوى، وكال بمكيالين، ووزن بميزانين، فيُعمل هواه ويترك هدى الله.

إذاً قال: (والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب)، يعني: الإيمان بالاستواء واجب، لأنَّ الله أخبر عنه في كتابه، أخبر عنه نبيه صلى الله عليه وسلم، فلا يحلُّ لمؤمن أن ينكر الاستواء ويجحده، (والسؤال عنه بدعة)، يعني: السؤال عن كيفية الاستواء بدعة، لأنَّ هذا أمر ممتنع عقلاً، محرم شرعاً، ولم يكن الصحابة رضوان الله عليهم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كيفيات صفاته، فلهذا كان بدعة، ثم إنَّه قال: (وإني لأخاف أن تكون ضالاً. ثم أمر به فأُخرج)، تعزيراً له، وذلك أنَّ الإمام مالك كان في زمن قد انتشرت فيه السنة، وفشا فيه العلم، فلا يعذر مثل هذا السائل، ربما عُذر بعضهم في أوقات الجهالات وفشوا الشبهات وغير ذلك، فيقال: إنَّه يُعلَّم، وهو قد علَّمه مالك رحمه الله، لكن نترفق به، لكن إذا كان في

وقت لا عذر له فيه فإنَّ الأكيس والأوفق أن يعامل بشدة، كما صنع مالك حينما أخرجه من المسجد، ليكون عبرة لغيره، ولا ينفتح باب التقول على الله عز وجل والنيل من جنابه، وأنتم تلاحظون – وللأسف – أنَّه في هذه الأزمنة ولما تمكَّن كثير من الزنادقة وممن لا يرجون لله وقاراً، من أن يهرف بما لا يعرف عن طريق الوسائط المختلفة، يتترس أحدهم بأسماء مستعارة في الوسائط الالكترونية، ثم يتقيأ ما في جوفه من الباطل، كثرت الجرأة على جناب الرب سبحانه وتعالى، والنيل من كماله وأسمائه وصفاته، والنيل من رسله الكرام سيما نبينا صلى الله عليه وسلم، فضلاً عن الصحابة والتابعين، ما أحوج هؤلاء إلى درَّة عمر، أو ربما نقول: إلى سيف عمر رضي الله عنه، وإلى أن يُعاملوا معاملة هذا المبتدع كما عامله مالك رحمه الله. فلا كثرهم الله ولا وسَّع رقعتهم.

[قال أبو سعيد رحمه الله: وصدق مالك، لا يُعقل منه كيف، ولا يُجهل منه الاستواء، والقرآن ينطق ببعض ذلك في غير آية.

فهذه الأشياء التي اقتصصنا في هذا الباب، قد خلص علم كثير منها إلى النساء والصبيان، ونطق بكثير منها كتاب الله تعالى، وصدقته الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه والتابعين، وليس هذا من العلم الذي يشكل على أحد من العامة والخاصة، إلا على هذه العصابة الملحدة في آيات الله، لم يزل العلماء يرون هذه الآثار، ويتناسخونها، ويصدقون].

الذي يظهر – والله أعلم –: (لم يزل العلماء يروون هذه الآثار)، قال في المطبوعتين: يرون، وهو خلاف المخطوطة، ومعنى كلام المصنف رحمه الله: يقولون بها ويعملون بها، يعني: إذا كانت ثابتة هذا هو اللفظ المحفوظ (يرون) يعني: أنَّهم يعتقدونها، لكن الأليق والله أعلم أنَّها (يروون). ماذا عندك؟

....

يرون، أثبتها يروون؟

[لم يزل العلماء يروون هذه الآثار، ويتناسخونها، ويصدقون بها على ما جاءت، حتى ظهرت هذه العصابة].

هذه المادة لم تراجع على الشيخ ـ حفظه الله ـ

وقوله: (ويصدِّقون بها على ما جاءت)، يؤيد أنَّها (يروون)، لأنَّها لو كانت (يرون) لأغنت عن قوله: (ويصدِّقون بها).

[ويصدِّقون بها على ما جاءت، حتى ظهرت هذه العصابة، فكذبوا بها أجمع، وجهلوهم، وخالفوا أمرهم، خالف الله بهم.

ثم ما قد روي في قبض الأرواح، وصعود الملائكة بها إلى الله تعالى من السماء، وما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من قصته حين أسري به، فعرج به إلى سماء بعد سماء، حتى انتهي به إلى سدرة المنتهى التي ينتهي إليها علم الخلائق فوق سبع سموات، ولو كان في كلِّ مكان كما يزعم هؤلاء، ما كان للإسراء والبراق والمعراج إذاً من معنًى، وإلى من يُعرج به إلى السماء، وهو بزعمكم الكاذب معه في بيته في الأرض، ليس بينه وبينه ستر، تبارك اسمه، وتعالى عما تصفون.

حدَّثنا عبد الله بن صالح المصري، (قال): حدَّثني الليث يعني ابن سعد، (قال): حدَّثني يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدِّث أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {فُرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن سماء الدنيا: افتح قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معي محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم. قال: فافتتح، فلما علونا السماء الدنيا}. وساق الحديث إلى قوله: قال أنس: فذكر أنَّه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم.

قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم أنَّ ابن عباس وأبا حبة الأنصاري رضي الله عنهما يقولان: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ثم عُرج بي، حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام}، قال: {ثم انطلق بي، حتى انتهي بي إلى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي}.

حدَّثنا أحمد بن صالح، عن ابن وهب، عن يونس، بإسناده نحو معناه].

لا شك أنَّ هذا الحديث حديث صحيح، وإن كان عند المصنف رحمه الله مبدأه بعبد الله بن صالح المصري كاتب الليث، لكن من بعده أئمة أعلام، يونس بن عبد الأعلى، ابن شهاب محمد بن شهاب الزهري، ثم

صحابيين أنس بن مالك وأبو ذر، والحديث ثابت في الصحيح بحمد لله، والشاهد منه واضح جداً وهو: عروج جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ سدرة المنتهى، {يصعد من كلِّ سماء إلى التي فوقها حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام}، أقلام القدر، {ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى}، وهناك كلمه ربه عز وجل وفرض عليه الصلاة.

فأي عاقل وأي امرئ ليس في قلبه شبهة من الشيوخ والصبيان والعامة يسمع هذا لا يقع في قلبه إلا أنَّ الله تعالى في العلو بذاته، لا يقع في قلبه ما يدعيه هؤلاء اللئام من اعتقاد أنَّ الله تعالى في كلِّ مكان.

ثم قال: [حدَّثنا عبد الله بن أبي شيبة أبو بكر، (قال): حدَّثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {إنَّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، أنزل الله إليه من السماء ملائكة}، وساق الحديث. قال: {فتخرج روحه، فيصعدون به حتى ينتهوا به إلى السماء، فيستفتح، فيفتح له، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء السابعة، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارةً أخرى. وأما الكافر}، قال: {ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون، فلا يفتح له}، ثم قرأ: ((لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ))[الأعراف:٤٠] الآية. قال: {فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في سجين، في الأرض السفلى، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارةً أخرى. فيطرح طرحاً}، وساق الحديث بطوله كما ساق.

قال أبو سعيد: ففي قوله تبارك وتعالى: ((لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ))[الأعراف:٤٠] دلالة ظاهرة أنَّ الله عز وجل فوق السماء، لأنَّ أبواب السماء إنَّما تُفتَّح لأرواح المؤمنين، ولرفع أعمالهم إلى الله عز وجل منها، ولما سوى ذلك مما يشاء الله تعالى].

صدق أبو سعيد، فهذا الحديث يدلُّ دلالة ظاهرة على ارتفاع الأشياء إلى الله سبحانه وتعالى، وأنَّ الله تعالى في العلو، وهذا الحديث حديث مشهور، وهو حديث البراء بن عازب، وإسناده حسن، فإنَّ فيه المنهال بن عمرو، والمنهال بن عمرو صدوق، ومن ضعَّفه كابن حزم لم يوفَّق في تضعيفه، فإنَّما ضعَّفه من ضعَّفه قالوا:

لأنَّه سُمع صوت طمبور من داره. وسماع صوت الطمبور من داره لا يعني أنَّه قد علم بالحال، فربما كان في يدي صبي، وربما كان رحمه الله – أعني المنهال – ليس في الدار، والعجب أنَّ ابن حزم يضعفه بذلك مع أنَّه يرى حلَّ المعازف، فهذا من العجب في الحقيقة، فالحديث حديث صحيح، احتمله أهل السنة، وحدَّثوا به، وهو من خير المواعظ التي يوعظ بها، ولا يوجد سياق في حال الإنسان وانتقاله من الدنيا إلى الآخرة أحسن من هذا الحديث وأتم سياقاً، ففيه موعظة بليغة، وهو حديث صحيح إن شاء الله.

ثم قال: [قال أبو سعيد: ففي قوله تبارك وتعالى: ((لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ))[الأعراف:٤٠] دلالة ظاهرة أنَّ الله عز وجل فوق السماء، لأنَّ أبواب السماء إنَّما تُفتَّح لأرواح المؤمنين ولرفع أعمالهم إلى الله عز وجل منها، ولما سوى ذلك مما يشاء الله تعالى، فإذا كان مع الميت والعامل بنفسه في الأرض فإلى من يُعرَج بأرواحهم وأعمالهم؟ ولِم تفتح أبواب السماء لقوم وتغلق عن آخرين، إذا كان الله بزعمهم في الأرض؟ وما مترلة قول الله عز وجل عندهم إذ ((لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ))[الأعراف:٤٠].

فمن آمن بهذا القرآن الذي احتججنا منه بهذه الآيات، وصدَّق هذا الرسول الذي روينا عنه هذه الروايات، لزمه الإقرار بأنَّ الله بكماله فوق عرشه، فوق سمواته، وإلا فليحمل قرآناً غير هذا؛ فإنَّه غير مؤمن بهذا].

الله المستعان، اللهم إنَّا نقرُّ لك بذلك بما دلَّ عليه كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم، وأما من اعتقد غير ذلك فإنَّه كما قال الإمام أبو سعيد: (فليحمل قرآناً غير هذا فإنَّه غير مؤمن به)، وهو رحمه الله في حجاجه معهم شديد الوطأة، ولهذا تجد أنَّه يقول أحياناً: ويلك، ونحو هذه العبارات، ويصفهم بما يستحقون من ألقاب السوء، وكلُّ ذلك نصرة للسنة، وحمية على الدين.

لعلنا نقف عند هذا، لأنَّه سينقلنا إلى فصل جديد، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.